بسالة الطبيب أو «الغاية تبرر الوسيلة»

للكاتب الفرنسي: فيلي دي ليسل آدم

«القتل من أجل المداواة» «الشعار الرسمي لإحدى المستشفيات»

توشك إحدى المحاكم في لندن على النظر في قضية غاية في الغرابة بطلها طبيب يدعى «هاليندهل» أما حقيقة الأمر فهي على النحو التالي:

في العشرين من شهر مايو الماضي كانت غرفتا الانتظار بعيادة الطبيب الشهير تغصان بالمرضى الذين أمسك كل منهم بتذكرة الدخول بيده.

وفي مدخل العيادة وقف المحاسب مرتدياً معطفاً صوفيا طويلاً.. وشرع يتلقى رسوم العلاج المقررة على كل مراجع! جنيهان يدق عليهما ـ بخفةٍ ـ بمطرقة للتأكد منهما قبل أن تنفرج شفتاه عن تلك العبارة الروتينية «لا بأس».

وفي المكتب الزجاجي الأنيق الذي توشِّيه شجيرات كثيرة غرست في أحد الأحواض اليابانية الكبيرة جلس الطبيب الصارم! ملامحه الحادة ما كانت لتتلائم مع ضآلة حجمه وصغر جسمه . أما سكرتيره فجلس غير بعيد عنه يدوِّن وصفات طبية موجزة، فيما وقف إلى جوار الأبواب المتحركة الموشحة بقطيفة حمراء ثبتت بمسامير لها رؤوس ذهبية حاجب عملاق كلف بحمل تلك الأجساد المصدورة إلى صالة الانتظار ثانيةً حالما يلفظها المصعد الفخم فور سماع العبارة المألوفة: ـ المريض التالي ـ!

يلج المرضى البؤساء بنواظر تبعث على الأسى... عيون ندية من أثر الدمع، زجاجية جوفاء لخواء أفئدتهم من عذب الأمل وقد تحلّلوا من ملابسهم العلوية حتى الخصر وألقوا بها على أذرعهم فيتلقون فور دخولهم العيادة فحصاً روتينياً للصدر والظهر، يطرق الطبيب على صدورهم ثم يطلب منهم القيام بعملية شهيق وزفير، يتبع ذلك وصفة سريعة ثم تلك العبارة المعتادة: المريض التالي.

ذلك كان دأبه... وعلى امتداد سنوات ثلاث من التاسعة صباحاً وحتى الثانية عشرة.. وفود من المراجعين تترى... فتلقى ذات الإجراءات إلى أن يلفظها باب العيادة.

على أنه وفي هذا اليوم بالذات... في العشرين من شهر مايو ومع دقات التاسعة تماماً تسلل شبح هيكلي لعملاق عجيب الهيئة، ولج إلى العيادة بعيون زائغة، وخدود غائرة، ونظرات حائرة يائسة سملها القنوط فلا تبصران غير العدم... كان قفصه الصدري يعلو ويهبط تحت قرع سعال شديد يكاد يهشِّم أضلاعه... وكان الناظر إليه يعجب من بقائه على قيد الحياة... لم يكن به من أثر لها غير نفس يتردد في اضطراب يمزقه لهاث وإعياء وسعال كسكرات الموت أو هو أشد وأعتى.

كان يحمل فوق ذراعه معطفاً من الفرو الثمين.... وبدا جليّاً أنه كان يقاوم خشية أن يغمى عليه.... فكان يتشبث بأغصان شجيرات الزينة حتى لا يقع، وألقى الطبيب عليه نظرة سريعة ثم شرع في تطبيق ذات الفحص المعتاد. وما إن انتهى حتى صعقه بتشخيصه المؤلم:

ـ ليس باستطاعتي مساعدتك البتة!

ثم استطرد في تذمر واضح: ـ من تحسبني؟ مسجل الوفيات؟... خلال أقل من أسبوع ستبصق آخر خلية في رئتك اليسرى... أما اليمنى فإنها مثقوبة كمنخل!

وكان الحاجب على وشك حمله إلى الخارج حينما ضرب الطبيب الجليل جبهته بكفه فجأة كمن تذكر شيئاً ابتسم في مكر قبل أن يسأله:

ـ أأنت غنيّ؟

ـ أنا مليونير.... بل إني أكثر من ذلك!

رد ذلك المدنف البائس اليائس الذي نفاه المعالج من عالم الأحياء في صلف إلى مجاهل الردى.

ـ حسن جداً إذاً ـ استأنف الطبيب ـ اذهب إلى محطة «فيكتوريا» على الفور ثم خذ قطار الحادية عشرة السريع من هناك إلى «دوفر» ومنها خذ سفينةً إلى «مارسيل»... واحجز غرفة مبيت مزودة بالبخار ثم اتجه إلى «نيس» وهناك حاول أن تعيش على البقلة المائية المعروفة بـ«قرة العين» لمدة ستة أشهر... «قرة العين» ولا شيء سواها... لا تتناول خبزاً أو فاكهة... أو لحماً أيًّا كان نوعه. واحرص على تناول ملعقة من ماء المطر المعالج باليود كل يومين ولا تنس: «قرة العين» ثم «قرة العين» ولا شيء سوى «قرة العين»... مسحونه في عصارتها! ذلك هو آخر أمل لك... ومع ذلك فدعني أصارحك بأن هذه الوصفة قد بلغت علمي سماعاً فقط! ظلت تطرق أذني لفترة طويلة ومع ذلك فإني لا أصدق منها حرفاً وإنما اقترحت فكرتها عليك لأن حالتك ميؤوس منها... رغم تفاهتها فإني لا أرى ضيراً من تجربتها!... كل شيء في هذا الكون محتمل الحدوث: المريض التالي! ونقل هيكل العملاق المشلول إلى المصعد فيما استمر تواتر المرضى على مكتب الطبيب.

بعد ستة أشهر وفي الثالث من نوفمبر تحديداً.. ومع دقات التاسعة صباحاً... تماماً اهتزت الأرض تحت وقع عنيف لأقدام مارد عملاق صوته كان جهورياً مرعباً رغم نبرة المرح المخامر، صوت قوي مجلجل زلزل أغصان النباتات الاستوائية وجدران الزجاج المحيطة بمكتب الطبيب .

ولج ذلك العملاق كقنبلة بشرية، ينضح صحة وقوة وسعادة وحبوراً ـ تبدى ذلك عبر خديه المتوردين تخال الدم منهما يوشك أن ينثال واخترق طيفه الأنيق الرافل في فرو ثمين معشر المصدورين الراسغين في أغلال البأس والشك والإحباط في عيادة الطبيب «هاليندهل» واقتحم مكتبه دون تذكرة دخول! كان الطبيب على وشك الجلوس حينما صعقه ذلك الاقتحام غير المشروع! وسارع العملاق باحتضان الطبيب ثم أمطر وجنتيه الغائرتين بوابل من الدموع والقبلات... وعاد يقبله مجدداً... بصوت مسموع قبل أن يضعه في كرسيه.. في شبه حالة اختناق من هول المفاجأة وحرارة القبلات التي لم يجد لها تفسيراً.

ـ مليونا فرنك إن أردت! صاح العملاق! أو ثلاث! أنا مدين لك ـ بعد الله ـ في استعادة صحتي... في استرجاع المقدرة على العودة إلى ما كنت عليه من قوة ونضارة... في الاستمتاع بالشمس تسكب عقود تبر على أعتاب الوجود... في التقلب في أحضان العواطف المتأججة بجمال الحياة وعظمتها في ....في كل شيء دون حصر... اطلب أي شيء سمِّه وستجده أمامك!

ـ من هذا المعتوه؟ أخرجوه من هنا! قال الطبيب بضعف بعد ما استرد شيئا من أنفاسه.

ـ كلا لا تفعل! قال العملاق مخاطباً الحارس رامقاً إياه بنظرة جعلته يرتد في ذعر إلى الوراء كمن تلقى ضربة قاصمة!

ـ واقع الأمر هو أن الجميع بمن فيهم أنت ـ يا من أنقذت حياتي ـ تابع العملاق ـ لم يتمكنوا من معرفة من أكون! أنا رجل بقلة «قرة العين».

ذاك المصدور البائس اليائس الذي قصد عيادتك يوماً فأحلته إلى حمية «قرة العين» لستة أشهر أليس هذا بديعاً انظر إلى صنيعك. تأمل هذا! قال ذلك قبل أن يدقَّ على صدره بيديه بقبضتين هائلتين لو طرقتا جمجمة ثور لهشمتاها.

ـ ماذا؟ صرخ الطبيب وهو يهب واقفاً كمن لدغته أفعى... أنت... يا إلهي أنت ذاك المحتضر الذي قمت بـ....

ـ نعم... نعم وألف نعم... أنا هو بعينه ساعة وصولي ليلة البارحة أمرت بصنع تمثال من البرونز لك كما وإني سآمر بوضع آخر لك في ساحة «ويستمنستر» حينما يتوفاك الله.

قال ذلك قبل أن يلقى بنفسه على أريكة ضخمة اهتزت أركانها وأزّت تحت وقع ثقل جسده. وتابع المبِلُّ من دائه في ارتياح وسعادة تبلورت في ابتسامة مشرقة انفرجت عنها شفتاه:

ـ ما أروع الحياة!

obeikandl.com

وهمس الطبيب إلى السكرتير والحاجب بشيء ما قاما على إثره بمغادرة المكان وألقى «هاليندهل» على مريضه السابق نظرة فاحصة... طويلة تحاكي الثلج برودة.... حدق في وجهه بصمت لدقيقة أو اثنتين ثم قال فجأة:

ـ اسمح لي أن أهشَّ عن جبينك تلك الذبابة!.

وما إن ختم عبارته حتى أخرج من جيبه مسدّسا صغيراً وبسرعة البرق أفرغ منه رصاصة في الصدغ الأيسر للزائر المصعوق!

وهوى العملاق وقد تفرقت شظايا جمجمته وانتشر مخه الهائل على الأرض مزقاً مغطياً مساحة كبيرة من السجادة الفاخرة وظلَّت يداه ترتعشان تلقائياً... لوهلة قبل أن يغيبهما سكون الموت.

وأعمل الطبيب بعد ذلك في ملابس المغدور تمزيقاً حتى بدا صدره للعيان ولم يتردد في إحداث شق طولي عبره بشجاعة متناهية... أحدث ذلك بضربةٍ واحدة من مشرطه العريض!

عندما دخل شرطي عيادة الدكتور «هاليندهل» بعد ربع ساعة وطلب منه مرافقته وجده منكباً على مكتبه في هدوء يحسد عليه فاحصاً عبر عدسة مكبرة رئتين هائلتين وضعهما أمامه في اهتمام . كان نابغة الطب ذاك يحاول استشراف كنه ذلك المفعول السحري لبقلة الماء وما أحدثته من أثر إعجازي في رئتي المتوفى.. عبثاً كان يبحث عن إيضاح مقنع لما حدث!

ـ أيها الشرطي! قال هاباً من مكانه .. لقد شعرت بحاجة ملحّةٍ لقتل ذلك الرجل لأني كنت على يقين بأن إجراء تشريح عاجل لحالته سيكشف لي سراً بالغ الأهمية فيما يتعلق بالانحلال الحاصل لحيوية الجنس البشري وتدهور خلاياه.. والدور الذي تلعبه الأعشاب في الوقاية من كل ذلك وهذا ما جعلني أبادر دون تردد ـ وهذا اعتراف صريح مني بذلك ـ في التضحية بضميري في سبيل واجبي.

وغني عن القول أن سراح ذلك الطبيب الشهير قد أطلق على الفور تقريباً مقابل كفالة شخصية إذ إن حريته كانت أهم من اعتقاله بكثير.

تلك القضية الغريبة ـ كما أسلفت ـ ستُطرح كيما تنظر المحاكم الإنجليزية فيها ونحن على يقين من أن بطل تلك الجريمة السامية لن يواجه عقوبة الإعدام لأن الإنكليز ـ تماماً كما هو الحال مع الفرنسيين ـ قادرون تماماً على استيعاب المفهوم المتلخص في أن:

المحبة المحضة لمستقبل الإنسانية دون أخذ إنسان الحاضر بعين الاعتبار هي ـ في زمننا الحاضر ـ الدافع الوحيد لحتمية تبرير إخلاء سبيل ذوي الشهامة من متطرفي العلم.!

obeikandl.com